البحرية الاســـلامية

تأليف الدكتور على محمد فهمى شتا

للاستاذ منصور جاب الله

العنوان الكامل لهذا السفر القيم هو « البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى القرن العاشر بعد الميلاد» . ومنذ عامين قدم الدكتور على محمد فهمى شتا المفتش فى وزارة المعارف هذا الكتاب إلى جامعة لندن ، رسالة نال بها الدكتوراة الفلسفية فى مادة التاريخ . وفى مطالع هذا الصيف طبع الرسالة باللغة الانجليزية ، وهو الآن بسبيل إخراجه باللغة العربية لتعم به الفائدة . وكتاب البحرية الاسلامية يتضمن سرداً وافيا للتنظيمات البحرية فى شرق البحر المتوسط بين القرن الأول والقرن الرابع بعد الهجرة ، ولا نحسب أن كاتبا من الكتاب طرق هذا الباب من قريب أو بعيد سواء فى العربية أو فى غيرها من اللغات .

ويؤيد هذا الزعم الذى ذهبنا إليه أن الأستاذ « وستنفلد » جزم فى تقريره الذى قدمه إلى جامعة جوتنجن عام ١٨٨٠ بأن أحداً من الباحثين لم يطرق باب النشاط البحرى عند المسلمين . وفى عام ١٩٤٦ أكد الأستاذ جانو هذه الحقيقة فى مقال نشرته مجلة « ويفيو أفريكان » مشيراً إلى أن اندرام المراجع لم يغر أحداً من الباحثين على التوغل فى ذلك الميدان .

وكذلك ظل تاريخ البحرية الإسلامية مغلوفا فى غلالات من النسيان ، وبقى الباحثون عنه فى تيه سر مدى ، ودفنت دقائقه مع المؤرخين الإسلاميين القدامى الذين غيبوا عنا من زمن بعيد .

واقد وقفنا طويلا نتساءل عن سر اهتمام رجل مثل الدكتور شتا — وهو من رجال التعليم — بالمسائل البحرية ، هذا الاهتمام الذى تجلى فى كل سطر من سطور كتابه النفيس ، وماله لم يلق هذا العبء على غيره من رجال البحر المثقفين عندنا ؟ ثم عدنا نجيب بأن مرد ذلك إنما يرجع فى الأكثر إلى العقل الباطن فى المؤلف فهو من أسرة سكندرية عريقة ، وإنه ليرى فى صراحه ومغداه المنشآت فى البحر كالأعلام ، فينبع السؤال من قلبه : كيف نشأت ؟ وكيف كانت ؟ ثم كانت رسالته العلمية جوابا على خمسة فصول يبحث أولها فى دور الصناعة عند العرب والقواعد البحرية عند المسلمين معتمداً فى ذلك على أوراق البردى وكتاب العرب القدامى . وقد بدأ بتحقيق ذلك فى مصر وبين أهمية مرافىء القلزم والاسكندرية ودمياط ورشيد والقواعد البحرية الأخرى ثم عرج على تاريخ أول (ترسانة) إسلامية فى مصر ، وهى تلك التى كانت فى حصن « بابل » وحدد موقعها تحديدا يذهب كل لبس . ثم عكف على معالجة دور الصناعة فى الشام وتحدث بإسهاب عن دار الصناعة فى طرسوس .

وتناول الفصل الثانى مراكز قيادة الأسطول الافريقى فى برقة ، وتحدث عن الصناعة البحرية فى تونس ، وأثبت أن أقريطش (كريت) كانت مركزاً بحريا مهما فى فجر الاسلام إذا قورنت بجزيرة قبرص .

أما الفصل الثالث فيتضمن وصف أدوات صناعة السفن ومنها أنواع الخشب المختلفة ، ومناسبة كل نوع لغرض بحرى ، ثم أشار إلى توفر الخشب — فى ذلك العهد — فى كل من مصر وسوريا ، وتناول بعد ذلك صناعة الحديد والسلاسل النحاسية والحبال وغيرها من الأدوات التى تستعمل فى الصناعات البحرية .

ودرس فى الفصل الرابع مسألة تنظيم الأساطيل الغازية وهى أسطول مصر وأسطول الشرق وأسطول إفريقية ، وأدلى بمعلومات خاصة عن قوة كل أسطول وميزانيته ، ثم تطرق إلى الكلام عن الضرائب والسخرة والتجنيد وطرائق جمع البحارة والقائلة والصناع ، وبعد ذلك تفرغ إلى البحث فى مسائل التموين والذخيرة والأجور إلى أن انتهى إلى مسألة الفارين من الجندية البحرية الاجبارية وكيفية عقابهم وطرق استتابتهم .

أما الفصل الأخير فى هـذا الكتاب النادر فيتحدث عن الطايم الذى تمتاز به سفن البحر المتوسط ـ أو بحر الروم كما كان يسمى عند العرب ـ وموازن بين السفن الإسلامية فى ذلك البحر والسفن الاسلامية فى بحر الزنج أو المحيط الهندى ، ثم يتبع ذلك دراسة شاملة عن أنواع السفن البحرية والعاملين فيها ، وأخيراً يردفها بالتعليمات الرسمية التى أصدرها الخليفة العباسى متعلقة بمهام قائد الأسطول .

وبعد تمام الكتاب أضاف إليه مؤلفه العالم ثلاثة تذييلات أولها عن الغابات فى مصر والأمكنة التى كانت توجد بها وطرائق العناية بها وصيانتها ، وثانيها عن أسماء السفن فى عهد الدولة الطولونية ، وآخرها عن أسماء السفن كما ذكرها المقدسى

. . .

ومن خلال هذا العرض الموجز يعرف مدى المجهود الذى بذله المؤلف الشاب فى كتابه الفريد فى بابه ، وكثرة المراجع التى أخذ نفسه بدراستها ، ويزيد الأمر غرابة أن المؤلف لم يشتغل بالشئون البحرية ولم تكن له دراية بها ، ومن ثم يكون عمله هذا فذاً فى نوعه طريفاً فى بابه ، يستحق عليه الإعجاب والإكبار .

منصور جاب الله

فى رحاب الصوفية

تأليف الأستاذ أحمد الشرباصى

للأستاذ أحمد عبد اللطيف بدر

الكلام فى الصوفية لغير الخاصة يحتاج إلى براعة فائقة تقرب مدلولاتها للأذهان ، وتدنى رموزها من القلوب . ولقد اتخذ بعض « المتواكلين » كلمة « التصوف » سبيلا إلى المتاجرة بها على أسلوب من الزهادة المصنوعة ، وجعل لها « طقوساً » يخدع بها الساذجين من العامة ، حتى يسيروا فى ركابه ، ويتمسحوا بأعتابه !

وقد عمد الأستاذ « الشرباصى » إلى الوجازة المفيدة فى تعريف الصوفية ليكشف الحقائق عن حقيقتها ليتعرفها من يعرفها مشوهة ، ناقصة ، ذات بريق خداع !

واستهل صاحب الرسالة بحثه الخاطف بشطحات يحال بها السلوك الصوفى على أسلوب من الترغيب ، لكنه لم يتعرض إلى معنى كلمة « التصوف » بحسب ما أراده بأسلوبه المقرب ، مع أن المقصود من إيراده كشف الغطاء عن تلك الكلمة التى يخدع الخادعون بها البسطاء !

لم يكن المقصود من تأليف هذه المجالة العمق ، والتخصص والإحاطة ، لأنها ليست مرسلة للخاصة كما قلنا ، لكنا نعتقد أن الحومان حول الكلمة ذاتها فى استهلال البحث أدعى إلى المعرفة « الساذجة » من المرض الذى عرضه من دون تنبيه الأذهان !

لا ننكر لباقته حينما تعرض « للشطحات » وصورها بأسلوبه السلس الدفاق ، المليء بالجاذبية ، والوضاءة ، والألمعية ، لكنا لازلنا عند رأينا فى ضرورة الافصاح عن مدلول كلمة « التصوف »

يتغلغل فى الريف جماعة لا هم لهم إلا اصطياد السذاجة فى أحبولة الخداع ؛ فيقع فى شراكهم كثير من طالبى الحاجات يطلبون الخير والبركة ، ويلتمسون العفو والمغفرة ، ويأنسون إلى المخادعة والمنافقة !

إن الإشارة إلى هؤلاء البغاة على الايمان فقيدة فى الرسالة الصغيرة ، وكان حريا بالأستاذ الشرباصى ـ وهو القوى الايمان ـ أن يصور بقلمه الثائر الجوانب التى يعيش فيها المرتزقة باسم التصوف ، لكنه تغافل وجودهم اكتفاء باستعراضه الصور الوضيئة للمتصوفة .

على أن هذه الرسالة ـ على صغرها ـ قد دعت إلى التمسك بأهداب الدين ، والعمل وفق ما دعا إليه ، ومحاربة حب الظهور ، ومداراة العيوب ، وملازمة الزهادة ، والصبر على الشدائد ، وآداب الدعاء ، وطرق الاستجابة وكبت الشعوذ ، والتكشف عن الذات العلية !

لقد ساق هذه اللمحات فى صفحات ؛ فصورها بأسلوبه اللامع الذى يزيل عتمة القلوب !

بور سعيد — أحمد عبد اللطيف بدر